رحلة فريدة

وليد الهودلي - فلسطين

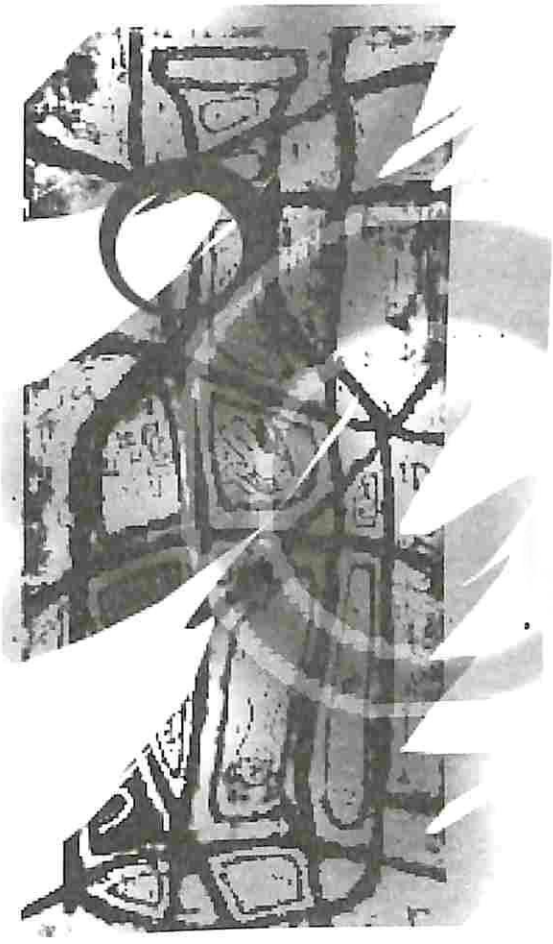

كنت في شهر رمضان أتنقل بين سُور القرآن كفلاح يعشق غرسه .. يتنقل بين أشجار حقله منتشيا ، مترنما ، يفيض نضارة وحبورا .. وكل شجرة لها في روعه ظلالها ووحيها .. أشعر بالشوق والحنين .. نزلت ديارها فأنزلت لي مائدتها .. انبعثت شهية روحي ، تحرك قلبي ليتلقى أشهى وألذ ما كان يتلقاه منها في المرات السابقة .. كانت سورة الواقعة تشد أوتار قلبي إليها برقة وحنان .. تندفع إيحاءاتها .. تلاطف روحي وتشد عزائمي .. تأخذ بيدي إلى جناتها وتسلقني قممها السامقة .. تناشدني وتبث في روحي أعظم الآيات وأجمل اللحظات .

قصتي مع (الواقعة) طويلة .. كنت عندما أتلوها صغيرا ترتجف أوصالي خاصة عند ذكر أصحاب الشمال .. أهرب مسرعا من ديارهم وألوذ إلى ديار أصحاب اليمين .. أما السابقون فقد كانوا في نظري نموذجا بعيد المنال .. أقول حسبي أن أكون من أصحاب اليمين .. أجد قلبي تواقا ومبتهلا " رب زحزحني عن النار " .. اجعلني من أصحاب اليمين .. ثم أسبح ربي العظيم من أعماق قلبي .. كنت أقرؤها كل يوم عندما تنبعث روحي للحياة .. أصبحت ركنا هاما من أركان حياتي .. كنت أعانق آياتها كمن يقطف من بستانه أعز الثمر فيزهو بها روعة وجمالا .. كبرت وكبرت معي معانيها .. أستذكر يوم الحشر أول طريقي معها .. ترتعد فرائصي وأنا أشاهد الكون وهو يتحطم أمامي .. الأرض ترتج والجبال تتناثر صخورها .. الكائنات تتفتت وتصبح هباء منثورا .. تكتمل صورة هذا المشهد العظيم فأنتقل إلى مشهد الفرز والتصنيف .. تغيب الشعوب والعشائر والقبائل والأحزاب ، تتحطم كل الانتماءات على صخرة هذا اليوم .. أتصور الناس وهم يتوزعون حسب الانتماءات الثلاثة : السابقين، أصحاب اليمين ، أصحاب الشمال .

أرسم لنفسي ثلاث طرق : ماذا لو كنت من

السابقين .. أكون فيها على سرر موضونة، أتكئ مبتهجا، ونعيمها يأتيني من كل جانب ، وأهم ما فيها أنني في صحبة أولياء الله الصادقين، لا أجد فيها إلا الطيب .. الطيب المادي والمعنوي .. كل شيء يلبس أجمل وأشهى ما عنده .. يتلألأ ويشع سعادة لا انقطاع لها .. والترحاب من أكرم خلق الله .. سلاما سلاما .. لا تجد من يجرح مشاعرك " لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما " .

أطل من هناك على دنياي فأجد اللغو والتأثيم يغمر الخلائق .. يارب سلّم .. أسحب نفسي من أحضان اللؤلؤ المكنون، وأنزل درجة حيث الطريق الثاني : أصحاب اليمين .. أدخل جنان السدر المخضود .. ظلال مديدة ، ومياه وفيرة ، وفاكهة كثيرة .. ثم أسترق البصر إلى العُرب الأتراب .. نشأة جديدة تختلف كليا عن نشأة الحياة الدنيا ..

أمسك خيالي عن السباحة العميقة خوفا على حالنا في الدنيا ، ثم أتجاوز سورا باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب .. أتحول من جنة الرجاء إلى جنة الخوف .. ماذا لو كنت - لا سمح الله - من أصحاب الشمال .. أنتبه وأفزع إلى الله بالعمل الصالح قبل فوات الأوان ، لا تغرّك نفسك .. وتعتبرها مضمونة إلى الجنة بقليل من الإيمان والعمل .. طريق أصحاب اليمين والسابقين محفوفة بأوكار الثعالب وكهوف العقارب .. شياطين ترمي عليك كلاليبها كي تبعدك عن الطريق .. الشهوات تتزين لك والدنيا تتراقص أمامك .. أي انصياع لهذا أو ذاك .. أي ضعف يعتريك ؟! أي تساقط قد ينجرف بك إلى الهاوية .. تدخل أبوابها .. توصد خلفك لأبد الآبدين .. تلفح وجهك ريح السموم ، يلفك سوادها ويطلق عليك لعناته .. تتردى أسفل سافلين .. ماذا دهاك ؟! ألم تكن أمامك الفرصة مفتوحة للنجاة ؟! كنت تشرك وتتوجه لغير الله في مملكة الله .. أكلت الحرام .. فتزقم مرارة الزقوم الآن .. شربت الهوى .. فاشرب الحميم الآن .

طاب منزلك بعد أن بنيت منازل الذل والعبودية للنفس والناس والدنيا .. ادعهم كي ينفعوك الآن إن كان لك صوت أو حول أو قوة !! .

اللهم أجرني من النار سبحانك إني كنت من الظالمين .. لماذا لا أفر إلى الله بكل ما أوتيت من قوة .. تفكر في خلق الله .. ارجع الخلق إلى الخالق .. انظر إلى النطفة ونشأة الخلق والموت والحياة .. انظر إلى الزرع وازرع ما ينفعك عند الله .. انظر إلى الماء وارتع من ماء القلوب الذي يروي الأرواح بمحبة الله .. انظر إلى النار واعتبر وسبح باسم ربك العظيم .

أسير هذه الطرقات الثلاث ثم أقف نادما وتائبا على أعتاب باب كريم .. قرآن معطاء فأقبل عليه بكل جد وإصرار .. بعقل واع وقلب طاهر لأنه لا ينبغي أن يمسه إلا المطهرون .. أغتنم الفرصة قبل أن تبلغ روحي الحلقوم فلا ينفعني أقرب المقربين .. أسترجع الطرق الثلاث في نهاية هذه الرحلة وأقول لنفسي : إياك طرق أبواب الجحيم .. تذكر جيدا .. نُزُلٌ من حميم وتصلية جحيم .. هذا حق، فإياك أن تفتر عزائمك عنه ، لا تغادر سفينة النجاة ، استمسك بها وسبح باسم ربك العظيم .. إنها أعظم رحلة تقوم بها نحو جنات النعيم حيث النزل المقيم .

قررت قراري .. أن أديم حبل وصالي مع عزيزة القلب - سورة الواقعة - وأن أضاعف من درجات محبتي لها، وأطلب المزيد من معانيها السامقة، وحياتها الخالدة .